الشاعر مصطفى ملح يتأمل عزلته في الحجر الصحي

المصطفى ملح

العزلة قدر الشاعر، ومحبسه الانفرادي بعيدا عن قبح الغابة. منذ انتميت إلى الشعر وأنا أسعى إلى الهروب من فوضى الواقع الذي صار غابة مغمورة بالخفافيش والتنانين والحشرات الإلكترونية.

عندما تقاد المحبة والجمال والعدالة والخير، في صورة قطيع منقاد، إلى المشنقة، وترى بعينيك اغتيال هذه القيم النبيلة، فإنك لا تملك إلا أن تنعزل وتلوك وحدتك التراجيدية بصمت مريب.

داخل هذا الواقع الطبقي أوجد، كائنا مفرغا من كيمياء المعنى، تمثالا طينيا معروضا في متحف آيل للانهيار. ولكن ما الذي حدث؟ إنها كورونا. مضاعفة العزلة والشلل الذي يطال الجسد والروح معا. لن أكون مختلفا عن الملايين الذين يترقبون بحذر وريبة ممزوجين بقليل من الأمل. برنامج الحياة بتغير، وبنية التفكير تتغير، ولا بد من إعادة النظر في كثير من المسلمات والبديهيات: لا بد من الاعتراف بأننا مجتمع يحارب الحداثة ويرسخ قيم التفاهة والبؤس الثقافي. أتساءل: أين انقرض واضمحل الذين كانوا يتقاضون الملايين من خزينة الدولة؟ المهرجون والمغنون والراقصات؟ الآن حصحص اليقين وبات واضحا أن الاطباء والعلماء والمدرسين هم أيقونات الوطن وحراسه من البؤس. الحداثة معمار يتشكل من إعمال العقلانية لتفسير كل ظاهرة والدفع بجسد الأمة إلى شاطئ الأمان. أما المهرجون والمشعوذون والمتاجرون بالدين فهم مجرد متاريس يقفون أمام تقدم قاطرة الوطن.

في هذه العزلة أكتشف بيتي من جديد. أتأمل زواياه ومنافذه كما لو كان شكلا مصغرا للعالم. أقترب من أبنائي وأحاكي طفولتهم قليلا. أدخل إلى المطبخ وأهيئ العشاء الأخير لمسيح معاصر وحواريين معاصرين. لا أقرأ ولا أكتب. أتخيل أنني شخصا آخر لا أعرفه، لذلك أترك له الفرصة ليعيش خارج جاذبيتي. أما متابعة الأرقام بتوجس وخيفة فأمر لا فكاك منه. كم أصيب وكم مات وكم شفي؟ هذا العبث الدولي يجرف النباتات الخضراء ويزرع الأشواك والمخاوف. هل يستطيع العقل البشري أن يتغلب على عدو صغير لا يرى بالعين المجردة؟ أتأمل كذلك الدول العظيمة. أكتشف أن قوتها لا تكمن إلا في إبادة الشعوب الضعيفة، إذ أن الفيروس المجهري قد كشف عن تفاهتها وبؤسها. وأتساءل: لماذا تنفق هذه الدول مليارات الدولارات لتبيد أسراب الحمام، ولم تفكر ولو مرة واحدة في بناء نسق المحبة وفضاء الحرية لتحلق أسراب الحمام تلك؟ وهل الاستعارة ما زالت كافية ومجدية للتعبير عما يحدث لطروادة المعاصرة؟

هي عزلة تضاف إلى عزلتي الوجودية السابقة. أصرخ بصمت، وأنشر تدوينات سريعة في مدح النهار وأخرى في شتم الليل. وعندما تغرب الشمس ألصق حواسي بجهاز التلفاز لأعد الخسائر: كم مات وكم أصيب وكم شفي.. البيت يتحول إلى علبة من الإسمنت، والمواقع الإلكترونية تصير أعشاش عناكب. أحاول أن أكون إيجابيا فأغني لأجل نهار سيطلع قريبا. الليل تصير كراهيته فرض وجوب. رأيت في القناة تجار الدين يخرجون إلى الشارع غير عابئين بتوجيهات الجهات المسؤولة. تساءلت: هل سيحررون القدس؟! يحرضون الناس على الخروج والتسبيح والتهليل كما لو أن الله لن يسمعهم إذا بقوا في بيوتهم. ولكن ابنتي تخبرني بناء على ما رأت في أحد البرامج بأن الخفافيش لا تخرج إلا ليلا! وأسعدني العمل النضالي الذي يقوم به الأطباء بتفان وإخلاص وحماس. أولئك هم المفتون الحقيقيون في هذه المرحلة وليس الذين أشعلوا النار بين علي ومعاوية! سأعيش هذا المحبس الانفرادي وأدعو إليه ما استطعت إلى ذلك سبيلا. لا نملك في الوقت الحالي خيارا آخر لحصار العدو المجهري الذي أربك العالم. وأحيانا أتساءل: من أين جاءت اللعنة؟ حرب بيولوجية؟ تسرب غازات؟ تطور جيني لفيروسات سابقة؟ الشيطان؟ ليس مهما التفكير في مصدر الداء وإنما التفكير في إجراء للمقاومة والاحتراز. لا بد من وعي حقيقي غير شقي وغير بئيس لنواصل الكفاح.

الجسد، جسد الشاعر، هو الآخر يصيبه وباء الزمن. أحاول أن أكتب ولكن الأنامل مشلولة وأزرار الحاسوب تصير رصاصات والخيال يتفحم. ماذا يحدث لي؟ إنه اليقين الذي لا مراء فيه. أنا أتحول إلى مخلوق إلكتروني وسأحتاج إلى بطارية لأشغل نفسي. أيها المجتمع الذي كنت أرجو أن تكون جنتي، أنت الآن تصير ناري وجحيمي. جسدي في هذا المحبس اللعين يصبح ثقيلا. أفكر في نزعه وتعليقه على المشجب. روحا أصير. خفيفا مثل ريشة عصفور. لن أحتاج إلى تعويذة أو رقية أو صابون أو مادة معقمة أو قفاز واق. الروح لا تخضع لقانون الجاذبية ولا يسري عليها ما يسري على الأبدان من أحكام وأقدار. الآن، في عزلتي، حجري الصحي، أعيش بلا جسد. خفيف أنا مثل ريشة عصفور، وجسدي معلق فوق المشجب، ولن تستطيع السيدة كورونا النيل مني!

> لماذا تنفق هذه الدول مليارات الدولارات لتبيد أسراب الحمام، ولم تفكر ولو مرة واحدة في بناء نسق المحبة وفضاء الحرية لتحلق أسراب الحمام تلك؟ وهل الاستعارة ما زالت كافية ومجدية للتعبير عما يحدث لطروادة المعاصرة؟

> اللعب عن بعد
> الصورة لأطفال من شفشاون ابتكروا أشكالا للتواصل عن طريق السطوح بعد أن ضيق الفيروس مساحات اللعب والشغب أمامهم.

على هذه الأرض ما يستحق الحياة

محمود درويش

(رغم رحيله
لايزال يحثنا على اقتراف الحياة)

على هذه الأرض ما يستحق
الحياة:
تردد إبريل، رائحة الخبزِ
فى الفجر، آراء امرأة في الرجال،
كتابات أسخيليوس،
أول الحب،
عشب على حجرٍ، أمهاتٌ تقفن على
خيط نايٍ، وخوف
الغزاة من الذكرياتْ.
على هذه الأرض ما يستحق
الحياةْ:
نهايةُ أيلولَ، سيّدةٌ تتركُ
الأربعين بكامل مشمشها،
ساعة الشمس في السجن،
غيمٌ يُقلّدُ
سِربًا من الكائنات،
هتافاتُ شعب لمَن يصعدون إلى
حتفهم
باسمين، وخوفُ الطغاة من
الأغنياتْ.
على هذه الأرض ما يستحقّ
الحياةْ:
على هذه الأرض سيدةُ الأرض..
عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ سَيِّدَةُ الأَرْضِ
أُمُّ البَدَايَاتِ أَمِ النِّهَايَاتِ
كَانَتْ تُسَمَّى فِلَسْطِين
صَارَتْ تُسَمَّى فِلَسْطِين
سَيِّدَتي: أستحقُّ، لأنّك سيِّدَتِي،
أستحِقُّ الحَيَاةْ)

أحمد الكبيري وجمال الموساوي يشربان قهوتهما في الواتساب

عصام واعيس

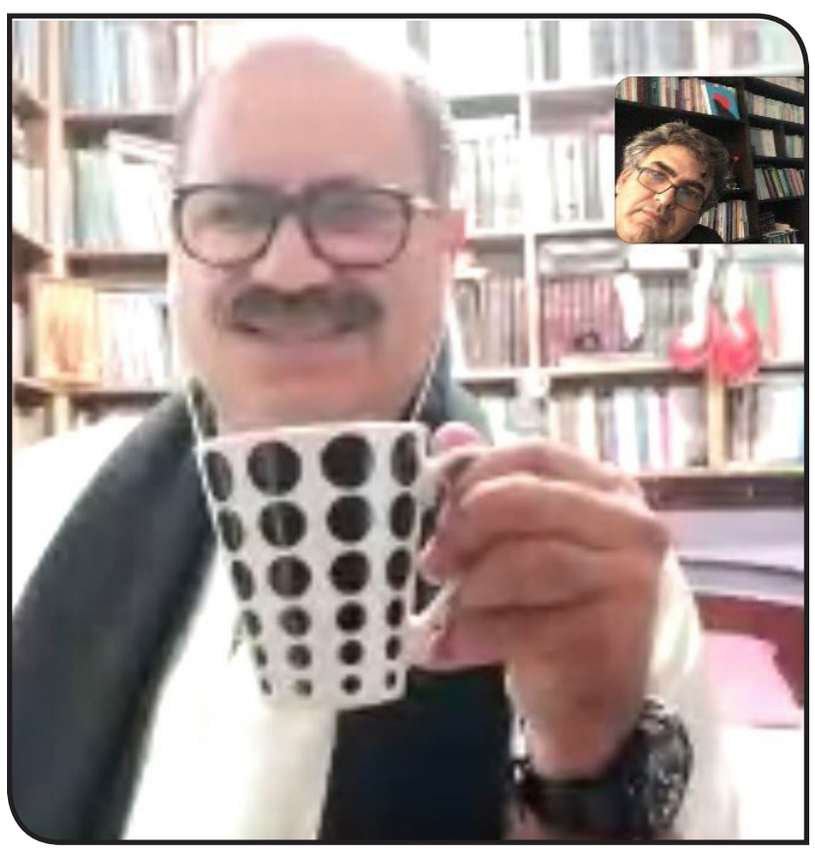

«خاي أحمد لكبيري، نتلاقاو فلعشية نشربو شي قهيوة فواتساب، راهم كايديرو قهوة جيدة»، بهذه الكلمات وجه الشاعر المغربي جمال الموساوي دعوة لصديقة الروائي أحمد الكبيري لشرب قهوة بمقهى خاص في زمن الجائحة. مقهى يصنعه الأديبان بخيالهما ويشربان قهوتهما فيه وهو يتشكل بينهما على جسر رقمي تعبر فوقه العلاقات الإنسانية وضعا استثنائيا فرضته جائحة كورونا على المغاربة والعالم.

«ها نحن نشرب قهوتنا. العلاقات الإنسانية فوق الحجر الصحي. وإنه بإمكاننا أن نلتقي دون أن نعرض أنفسنا والآخرين لأي خطر»، يكتب الشاعر الموساوي على صفحته بفايسبوك مرفقا النص بلقطة شاشة (screenshot) يظهر فيها في حديث بالصوت والصورة مع صديقه الأديب عبر تطبيق واتساب. الصورة التي نشرها الكاتب جمال الموساوي دفعت الشاعرة نوال شريف لاعتبار أن واتساب صار الآن «مقهى الشعراء».

من المغاربة من وجدوا في خدمة التواصل الجماعي الصوتي أو التواصل الجماعي عبر الفيديو المتاحة ببعض تطبيقات التواصل الاجتماعي بديلا آمنا للتخفيف من وقع انقلاب عوائد الحياة على النفس. فرض فيروس كورونا المستجد - الذي صنفته المنظمة العالمية للصحة «جائحة»- على المغرب وكثير من دول المعمور اتخاذ تدابير وقائية تهم الحياة العامة أبرزها تقييد الحركة ودعوة المواطنين للالتزام البيوت.

في مقهى رقمي آخر، برتشف شباب من سيدي سليمان قهوة بمواصفات سريالية ولذيذة أيضا. ينظم هؤلاء الشباب لقاءات «صوتية» في مواعيد محددة تطابق أحيانا مواعيد لقاءاتهم الاعتيادية بالمقاهي قبل إغلاقها. كمال السحتوتي أحد هؤلاء الشباب، يعتبر، في حديث لوكالة المغرب العربي للأنباء، أن «هذه اللقاءات تخفف من التغيرات التي جرت بفعل هذا الفيروس»، كما لا تترك ذريعة لأحد للتفكير في الخروج. وفي اتصال جماعي مع أصدقائه، أشرك فيه صحافي وكالة المغرب العربي للأنباء، يمازح كمال أحد أصدقائه قائلا «تريد قهوة «نورمال» أم «نص نص» ؟». وعلى صوت ضحكات متقطعة لأصدقاء آخرين داخلين في خط الاتصال، يضيف كمال موجها كلامه لصديق آخر:» وأنت طلبت ما ستشرب أم ليس بعد؟ انتظر سأنادي لك على النادل..»، قبل أن ينتقل الجميع لسرد أخبار ومستجدات مختلفة كثير منها يبقى على اتصال بالجائحة. وعلى اتصال بهذه الأزمة الصحية التي تفرض نفسها على أكثر من صعيد، يقدم أساتذة وباحثون دروسا على الهواء في مجهود لمواصلة التحصيل العلمي.

وعبر خدمات البث المباشر التي تتيحها شبكات التواصل الاجتماعي كفايسبوك أو تطبيق «زووم» أو من خلال المنصات والمواقع التي وضعتها وزارة التربية الوطنية لهذا الغرض، يقدم أساتذة دروسا وشروحات في مختلف المواد المقررة. ويساعد معدل النفاذ المرتفع إلى الانترنت في المغرب من تيسير التعليم عن بعد إلى جانب إعلان شركات الاتصالات الثلاث الفاعلة بالمغرب مجانية الولوج إلى جميع المواقع والمنصات الرسمية المتعلقة ب»التعليم أو التكوين عن بعد» بصفة مؤقتة.